في الأدب المقارن

# الوصف

## في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

الوصف من صميم الفن ولباب الأدب وأدل ضروب القول على صدق الشعور وذكاء القلب ، إذ أن روائع المشاهدات وطرائف المحسوسات وجديد المرئيات من أشد الأمور تأثيراً في نفس الأديب ، واستجاشة له إلى التأمل ، ودفعاً له إلى القول ؛ وليس خير الوصف ما أحاط بكل حقائق الموصوف وأحصى كل دقائق أجزائه ، كما تحصى الصورة الشمسية كل صغيرة وكبيرة من الشيء المصور ، وإنما خير الوصف ما أظهر المهم الرائع من أجزاء تلك الصورة ، وأبان عن أثرها في النفس ، وما تبعثه فيها من ذكريات وأطياف وأشجان وإطراب ، وارتحال الأديب من صقع إلى آخر ، ومن بلد إلى سواه ومن دواعي لجوئه إلى الوصف ، يعرض فيه ما يتوالى على عينيه وحواسه من آثار ومظاهر ؛ ومن ثم كانت الرحلة من أهم الأحداث في حياة الأديب بل من أهم مكونات شخصيته .

والوصف من أشد آثار الأدب امتاعا للنفس واستدعاء لانتباهها وإرضاء لغرائزها : إذ هو يرضي من الانسان غريزة التقليد والحكاية اشتى المرئيات والمحسوسات ، ويروى منه الميل إلى إحساس صدى عواطفه لدى الآخرين ، فهو يستريح إلى الأديب الذي يصف من المشاهدات ويروى من الاحساسات ما قد يكون القارىء مر به في مختلف أطوار حياته . والوصف أيضا يحرك الخيال ويمتعه ويفسح له مجال العمل ، ويبعد به وراء حدود الحياة اليومية الحاضرة . ومن ثم نرى البيت أو البيتين يعرضان في القصيدة الطويلة مشتملين على وصف رائع لمنظر أو حادث أو إحساس ، فيكونان غرة القصيدة وأحب أبياتها إلى النفوس .

ولما كان الوصف ضربا من القول فنياً صميما ، وكان يحتاج لتجويده إلى إطالة النظر وطول التقصي ورياضة الكلام ، وكانت موضوعاته أكثر من أن تعد وأوسع من أن تفنى ، كان الوصف يبلغ أوج ازدهاره حين يبلغ الأدب طوره الفني ، باستقرار الأمة وتحضر مجتمعها وذيوع الثقافة بين أبنائها ، واستعمال الكتابة الخطية وتوفر الفراغ للتروى والمعالجة والمعاودة للمنشآت الأدبية فالوصف من أهم أبواب القول التي تتسع وتترقى في طور الأدب الفني ذاك . ومصداق ذلك واضح في الأدب اليوناني قبل ازدهار الحضارة وبعده : ففي أشعار هوميروس لا يأتي الوصف إلا عرضاً ولا يوصف من الأشياء إلا ما دعت إليه الضرورة ، وأكثر الاهتمام مصروف إلى القصص ؛ فلما جاء شعراء الدراما واستغلوا نفس موضوعات هوميروس أحياناً ، وشوها ببديع الأوصاف الفنية المقصودة لذاتها .

وفي الشعر العربي الجاهلي شذرات من الوصف رائعة ، إذ كان ذلك الشعر بلغ من الفنية حداً لا باس به ؛ وكان لبعض الشعراء إلمام بالموصوفات يبدون فيه ما عرف به العربي من توقد القريحة ونفاذ البديهة وبلاغة الايجاز ؛ ولهم أوصاف حسنة لبعض أنواع الحيوان ولا سيما الجياد والابل والظباء ، وللمواقع والأطلال والأنواء ، وفي المعلقات نماذج لكل ذلك ممتعة ، حيث يصف كل من عنترة وامرىء القيس جواده ويصف لبيد ناقته ، ويصفون جميعاً أطلال ديار أحبتهم

ومن أجود أوصاف الحرب في الشعر الجاهلي قول القائل :

صريف أنيابها صوت الحديد إذا ... قض الحديد بها أبناؤها الوقر
في جوها البيض والماذي مختلط ... والجرد والمرد والخطية السمر
جاءت بكل كمي معلم ذكر ... في كفه ذكر يسعى به ذكر
لهم سرابيل من ماء الحديد ومن ... نضح الدماء سرابيل لهم أخر
مضاعفات عليهم يوم بأسهم ... لونان جون وأخرى فوقهم حمر

وبانتشار الحضارة وذيوع الثقافة اتسع باب الوصف في العربية أعظم اتساع ، ووصف الشعراء مظاهر العمران والترف وتصور الملوك ومواكبهم وحدائقهم وجيوشهم وسفائنهم ، ووصفوا الخمر ومجالس الشراب والطرب ، ووصفوا الجواري والغلمان ، ووصفوا الصيد والسباق ، وأولع الجاحظ وبديع الزمان بوصف الأحوال الاجتماعية ، فصورا مناظر في الحمام وفي السوق ومواقف التخاصم والتقاضي ، وأجريا الحوار بين شتى الأشخاص عالمهم وسافلهم . واشتهر أبو نواس بوصف الخمر ، والبحتري بوصف القصور ، والمتنبي بوصف الحروب ، وابن الرومي بوصف الفواكه والمآكل وتصوير الشخصيات الهزلية

ولما تغلبت الصناعة وطلبت البراعة اللفظية والنكتة المعنوية

والتانق والتظرف ، انعدم الحس أو كاد فى الوصف ، وتعلق الأدباء بوصف توافه الأشياء كالمحبرة أو الاسطرلاب أو القلم أو الكأس ، أو ماشابه ذلك مما هو فى غنى عن الوصف ، وما وصفه إلا تحصيل حاصل وإضاعة وقت ، فان الأصل فى الوصف الفنى كما تقدم أن يكون له باعث من شعور صميم ، لا أن يكون الغرض منه حكاية تفاصيل باردة فاترة . وقد أولع بذلك الضرب من الوصف النظرى ابن المعتز وابن خفاجة وكشاجم ؛ فلما أوغل الأدب فى التصنع وجانب الأدباء كل ذوق وكل معقول فى التعمل والإغراب ، انقلب الوصف فى أيدى أكثرهم إلغازاً ، فألغزوا فى أنواع المآكل والأسماء والآلات ، وبأمثلة هذا الضرب من الاحاجى السقيمة تمتلىء مقامات الحريرى وأشعار ابن نباتة المصرى وأضرابه

والأدب الانجليزى حافل منظومه ومنثوره بمحاسن الأوصاف؛ بيد أن باب الوصف فيه مخالف للوصف فى الأدب العربى من وجوه شتى : فهما مختلفان فى الموضوعات التى اتخذها كل منهما مادة وأدمن طروقها ؛ فقد تناول الأدب العربى — كما تقدم — وصف أنواع من الحيوان ، ووصف مظاهر اللهو والرفاهية ، وتناول بعد ذلك قليلا من وصف الطبيعة والمجتمع ؛ أما الأدب الانجليزى فهو أحفل بوصف هذين الأخيرين منه بوصف أى شىء آخر ، فالطبيعة كانت قبلة أكبر شعرائه وكتابه وشغلهم الشاغل ، ووصفها كان دأبهم أيا طرقوا من موضوعات القول ، فامتلأ الأدب الانجليزى بكنوز من أوصاف الطبيعة ، تكاثر ماقيل فى أى باب آخر من أبواب الشعر والنثر ؛ فالوصف الطبيعى مادة جانب عظيم من الشعر الانجليزى ، كما أن الوصف الاجتماعى مادة جانب عظيم من القصص والدرامات

وفى الأدب الانجليزى ضرب آخر من الوصف يستأثر به دون الأدب العربى ، على أنه من صميم الفن وأعلق نواحيه بالانسانية الشاملة والشعور العميق ، ذلك هو وصف آثار الأقدمين من عمائر وحصون وتماثيل وصور وأبناء وعظائم ، ففى ذلك كله مناديح للخيال ومجال للابتداع ومذاهب للفكر ، وتأملات فى أحوال الانسان وتقلب العصور والأحداث ، وتعظيم لقدرة الانسان وتقدير للفنون ، وكل ذلك يكاد يكون معدوماً فى الأدب العربى ، والمثل الرائع الفريد فى هذا الباب هو سينية البحترى التى لو كثرت مثيلاتها فى الأدب العربى لكان أرفع قدراً ، وكان أعلامه أسير فى العالمين ذكرا

ولم يقتصر أدباء الانجليزية على آثار التاريخ يستوحونها ما فيها من مناديح الوصف الشائق والتصوير المجسم ، بل عمدوا إلى الخرافة ولعلها أحفل بذلك من التاريخ ، إذ كانت أحفل منه بآثار الخيال وأحلام الانسانية ومثلها العليا فى القوة والجمال والسعادة ، فاتخذ الشعراء والقصاصون تلك الخرافات مادة وهيكلا لمنشآتهم ، ورصعوها بما شاءت لهم براعتهم من أوصاف ووجدوا فى أشعار هوميروس وفرجيل وقصص العصور الوسطى وأساطير الشرق والغرب مجالا لفنهم ، فأعادوا سرد ما راعهم من حوادثها ومواقفها سردا فنيا مسهب الوصف مشبعا بجميل المناظر والعواطف .

وكما يختلف الوصف فى الانجليزية عنه فى العربية فى الموضوع اختلافا كبيراً ، يخالفه فى الوسيلة مخالفة معدودة ، ففى العربية أوصاف بالغة من الكمال والامتاع ، بيد أنها جميعاً تعتمد على المعنى دون اللفظ ، وعلى التشبيهات والمجازات ، وتحتوى على كأن أو كاف التشبيه ظاهرة أو مستترة ، أما فى الانجليزية فيستعين الشعراء بجانب هاتيك جميعاً على وسيلة أخرى ، ليست أقل أداء للغرض وتصويراً للمنظر وإشباعا للخيال والحواس ، تلك هى الملاءمة بين صوت اللفظ وبين المعنى المصوغ فيه

وهذه الطريقة التى يلجأ إليها الانسان عمدا وعن وعى فى طور الأدب الفنى ، قد لجأ إليها فى عهوده البدائية ، أيام كان يصوغ ألفاظ لغته ويطلق كلا منها على كائن من الكائنات ، أو صوت من الأصوات ، أو عمل من الأعمال ، أو غير ذلك ، فالفاظ الرشاش والشواظ واليسليل والسكون وغيرها ، تدل بنطقها على مدلولها لأن الأقدمين إنما اشتقوها من هيئة مدلولاتها ، فعلوا ذلك عفوا وبداهة ، حتى إذا ما بلغ الأدب الطور الفنى واستمان الشعراء والكتاب بالتدوين وأطالوا التجويد لما ينشئون استرعت الألفاظ انتباههم بعد أن كان جل اهتمامهم موجها إلى المعانى ؛ وعند هذا الحد من التطور افترق الأدبان العربى والانجليزى فى طريقة استخدام الألفاظ . فأما الأدب العربى فجعل اللفظ غاية فى ذاته ، وجعل التأنق فيه مطمحا مستقلا ، وأما الأدب الانجليزى فعالج اللفظ وراضه وتانق فى صياغته ، ولكن لا على أنه غاية فى نفسه ، بل على أنه وسيلة للمعنى لا اكثر

فاذا كان فى المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد ، استخدم الشاعر الانجليزى بحراً من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ، وإذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير الأمواج أو قصف المدافع ، اختار من الألفاظ تلك التى تحتوى على حروف خشنة قوية ، وإذا كان يصف منظراً ساكناً وادعا

لم يذكر ذلك فى القصيدة ذكراً ، وإنما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلا ، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيها الشاعر الوصاف ماشاء له فنه ، ككثرة العطف أو القطع ، وتكرار الحروف أو الكلمات أو التراكيب أو الشطور أو الأبيات الكاملة . وقد اشتهر بالتفنن فى هذا التصوير اللفظى تنيسون وسبنسر وملتون ، بل سائر أقطاب الشعر الانجليزى ، بل جاراهم فى ذلك بعض الكتاب مثل ستيفنسون

وقد وقع شيء من ذلك فى بعض أشعار الوصف فى العربية ، ولكنه كان إلهاماً محضاً أو اتفاقا عارضاً ساقت الشاعر إليه الصدفة السعيدة أو السليقة المجيدة ، دون أن يتعمده عن وعى أو يتكلف فيه عناء كالذى تكلفه فى استخراج مابه من تشبيه ومجاز . ويتجلى الفرق بين الأدبين فى هذا الصدد فى علم البديع فبهما : فالبديع فى العربية يشمل الجناس والسجع وهلم جرا ، وهى محسنات للفظ مستقلا بنفسه وليست لها علاقة بالمعنى ، أما علم البديع فى الانجليزية فيشمل الملاءمة بين جرس الألفاظ وبين المعانى التى تؤديها ، ويشمل تشابه الحروف الأولى فى جميع ألفاظ الجملة الواحدة لأداء المعنى بطريق الجرس أيضاً ، وغير ذلك من حيل بلاغية ليست لها مصطلحات تترجم إليها فى العربية ، لأنها لم تكن من مألوف أدبائها (١)

واللغة العربية بغزارة مادتها وتلاطم عبابها وتعدد أوزانها وقوافيها ، وجمعها بين وعر الألفاظ ولينها ، ودقيق الأوصاف وجليلها ، وما لها من مرونة فى التراكيب ورحب فى الأساليب ومطاوعة لفن الأديب ، هى خير معوان له على إبراز شتى الصور من جرس الحروف وتتابع الألفاظ وتجاور التراكيب ، وتدفع الأوزان ورنين القوافى . انظر إلى الوزن كيف ساعد على إبراز المعنى فى قول بشار فى صوت مغنية :

تميت بها أرواحنا وقلوبنا  مرارا وتحييهن بعد هجود

وقول ابن المعتز فى خيل السباق :

خرجن وبعضهن قريب بعض  سوى فوت العذار أو العنان
ترى ذا السبق والمسبوق منها  كما بسطت أناملها اليدان

ساعدت السليقة المواتية أو الجد الموفق بشارا ، فجاء بيته ذاك ببحره الطويل وحروف اللين المتتالية الوئيدة الحركة فى « تميت » و « أرواحنا » و « قلوبنا » و « مرارا » و « تحيينهن » و « هجود » أصدق مصور لصوت المغنية إذا هى مددته وخالفت بين المدات فيه والقصرات ، ويبدو ذلك جلياً إذا قرىء البيت على مهل . كذلك حالف التوفيق ابن المعتز فاختار لبيتيه البحر الوافر المتدفق تدفق الخيل فى مجالها . وحالفه التوفيق مرة أخرى فذكر العذار والعنان ، وفضلا عن أن تتابع هذين اللفظين مما يزيد الحركة جلاء فإن ذكرهما مما يزيد الصورة تجسيما ، فإن ذكر جزء من الصورة دون بقية الأجزاء كثيرا ما يزيد الصورة وضوحا ، ويبعث من تلقاء نفسه باقى الأجزاء إلى الخيال . ولذلك مثال آخر فى قول جميل :

ولما قضينا من منى كل حاجة  ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا  وسالت بأعناق المطى الأباطح

فذكر الأعناق هنا بلاغة فائقة ، فهو يستتبع إلى المخيلة منظر الابل والأباطح والركب ، ويرسم حركة المطى معا . ومما يزيد الحركة تصويرا أيضاً اختيار الشاعر البحر الطويل البطىء النغم . وهناك وسائل أخرى لتجسيم الحركة البطيئة ، منها كثرة العطف ففيها دلالة على التطاول والتوانى ، ومنها كثرة الألفاظ القصيرة فإنها تستغرق نفس القارىء حتى يكاد يلهث بعد قراءتها ، ومن ثم يشعر بالبطء فى المعنى تبعاً للبطء فى اللفظ . ومثال الوسيلة الأولى قول امرىء القيس فى تطاول الليل

فقلت له لما تمطى بصلبه  وأردف أعجازا وناء بكلكل

ومثال الثانية قول المتنبى :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفى أذن الجوزاء منـــه زمازم

فقد احتوى بيت امرىء القيس على ثلاث جمل معطوفة ، واحتوت الشطرة الأولى من بيت المتنبى على خمس كلمات كلها قصير ، إذا قرأها القارىء متروياجاءت بطيئة مشعرة ببطء الجيش أو موحية بضخامته ، فلم يذكر المتنبى صراحة ومباشرة أن الجيش كان « ضخما » فيعتمد على المعنى وحده فى إعطائنا الصورة ، بل أوحى إلينا بمعنى الفخامة بوساطة كلمات الشرق والغرب والزحف ، ولاعلاقة لهذه الكلمات فى غير هذا البيت بالضخامة قط ، وبذلك استخدم المتنبى اللفظ ونطقه لأداء المعنى وهى هى الوسيلة التى استغلها أدباء الانجليزية قصداً وعمداً أكبر استغلال وأبدعه . أما الحركة السريعة فيؤديها البحر الكامل المندفع ، وهو لذلك خير ما يصور فيه عدو الجياد ، كما فى قول المتنبى

أقبلت تبسم والجياد عوابس  يخبن بالحلق المضاعف والقنا

وقول ابن هانىء الأندلسى :

وفوارس لاالمضب يوم مغارها  مضب ولاالوعر الحزون حزون

فى هذين البيتين تصوير رائع لعدو الخيل . وقد ساعد التوفيق

(١) ليس فى اللغات كلها أروع ولا أدق من علم البديع فى اللغة العربية . والمحسنات المعنوية فيه ثلاثة أرباعه . والنوع الذى يسميه الكاتب الفاضل فى الانجليزية يشبه ( ائتلاف اللفظ والمعنى ) فى العربية  ( الرسالة )

الشاعرين فى ألفاظهما بجانب الوزن الذى اختاراه ، فتكرار حرف الباء فى بيت أبى الطيب مما يزيد وقع حوافر الخيل فى بيته جلية ووضوحا ، وتكرار كلمتى الهضب والحزون فى بيت ابن هانىء يوحى إلى المخيلة تتابع الهضاب والروابى أثناء عدو الفوارس ، حتى يكاد يتخيل الانسان سيقان الخيل وهى تنهب تلك الحزون وتقفز من ربوة إلى ربوة . ويكاد البيت يعرض أمامك شريطاً سينمائيا متحركا ، ومتى بلغ الشاعر هذا المدى من دقة التصوير وروعته ، فقد أوفى على الغاية من الفن والشاعرية ، كذلك نرى الوزن واللفظ قد اصطلحا على إبراز المعانى فى قول مسلم بن الوليد فى مغازة :

تمشى الرياح بها حيرى مولهة  حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

وقول ابن حديس :

وراقصة لفظت رجلهـــا  حساب يد نقرت طارها

وقول المتنبى :

فى سعة الخافقين مضطرب  وفى بلاد من أختها بدل

فى بيت مسلم تكاد تحس الرياح المحرقة تلفح وجوهنا وتتمثلها تضرب جوانب الصخور ؛ وفى بيت الصقلى تتمثل حركة الراقصة السريعة الخاطفة ؛ وفى البيت الثالث تتمثل المتنبى على ظهر ناقته وهى تخالف بين أظلافها ممعنة فى الذهاب ، لما يمتاز به بحر المنسرح من اضطراب الحركة واندفاعها ، على حين يمتاز بحر الخفيف بالتؤدة وزنة الحزن ، مما يجعله أليق البحور بالمراثى والوجدانيات ، وهو من أهم أسباب سيماء الوقار والشجن التى تتسم بها دالية المعرى المشهورة التى مطلعها :

غير مجد فى ملتى واعتقادى  نوح باك ولا ترنم شاد

وصفوة القول أن الأدبين العربى والانجليزى قد احتويا على بدائع من الوصف ، هى غذاء اللب ومتاع الخيال ؛ بيد أن آثارها فى الأدب الانجليزى أغزر ، ونواحيها أكثر تعددا ، ونصيب الطبيعة منها أوفر ، ووسائلها أكثر عددا واختلافا ، وأدباء الانجليزية كانوا أكثر بصرا بها وأطول رياضة لها ، وكان نجاحهم فيها راجعا إلى الجهود المتبصر الواعى ، بجانب الطبع الصادق الموانى على حين كان نجاح أدباء العربية الذى مرت بعض أمثلته راجعا فى أكثر الأحيان إلى عفو الخاطر وهداية البديهة ، وما ذاك إلا لأن أدباء الانجليزية كانوا أكثر عكوفا على فنهم ، وتفرغا لأدبهم ، على حين كان أدباء العربية يولون الأمراء وذوى الهبات من اهتمامهم وتفرغهم ما كان فنهم به أحق ، وشاعريتهم به أولى

فخرى أبو السعود

٨٠٤٧

# ثورة دجـــلة

## للأستاذ على الطنطاوى

« ازدادت دجلة يومي الاربعاء والخميس ٣ ، ٤ صفر ١٣٥٥ زيادة هائلة لم تكن منتظرة ، وغدت بغداد عرضة للغرق بين كل لحظة وأخرى ، وسبق الناس كلهم للعمل على إقامة السدود ، ولم تنمض فى بغداد ليلة الخميس عين ... وكان شىء عظيم ... »

كانت تجرى فى الوادى حالمة سكرى ، غارقة فى بحر من الحب والشعر ، هادئة لا ترى فيها إلا آثار هذه القبل المعطرة المعسولة التى تطبعها الشمس على وجنتيها الصافيتين كل صباح ومساء ، تخطفها منها فى غفلة من الطبيعة ، فلا يبصرها إلا الشفق الذى يطل من نافذة الأفق يرميها بنظرة الكاشح الحاشد ، فيحمر وجه دجلة الفتاة من الخجل . وتغمض عينيها من الحياء ثم تسرع فى جريها ...

وكانت تتلقى بين ذراعيها العاشقين المدلهين ، كلما دجا الليل وأطفىء مصباح الكون ، وهم فى الزوارق ذوات الأجنحة البيض التى تشبه قلوبهم فى بياضها وخفقانها ، فتحدب عليهم ، وتحفظ أسرارهم ، وتمنحهم الخلوة الحلوة الآمنة ، تترع نفوسهم بالجمال والشعر ، حتى يغيبوا عن الوجود فى حلم فاتن بعيد ...

وكانت تغضى عن هذا النخيل العاشق ، وقد تعانق كل زوجين منه ، وتلامسا بالشفاه ، واستسلما إلى الغيبة الهنيئة ، وعن هذه القصور التى تفيات ظلاله ، سكرى بخمرة الجمال ، قد ضمت احناءها على حياة لذة وادعة ، ملؤها الحب ...

وكانت دجلة جمال العراق ونعمته وحياته ...

* * *

وكنت أذهب كل مساء ، إلى جسر مود ، انحدر إليه من الرصافة ، أمشى فى طريق ضيق ، كأنى أهبط وادياً من أودية بلادى الحبيبة ، ثم أصعد حتى أبلغ ضفة الكرخ ، فاسلك شوارع الضالحية ، حتى أصل إلى المطار ... حيث أبقى ساعة شاخصا إلى الأفق البعيد أتبصر فيه طيف موطنى الأصغر(١) وأتحسس نسمه فأشم فيه شذا الغوطة ، وانشق ريا نشرها العطر ، وعرف آسها ونسرينها ، وفلها وياسمينها ، وزنبقها ونرجسها ... حتى إذا قضيت

(١) أما موطنى الاكبر ، وموطن كل مسلم ، فكل بلد يقول أهله ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، سواء لدى أقالوها بالعربية أم بأى لسان